السلطان الظاهر بيبرس والصراع مع غزاة المشرق العربى

د.عبد الرحمن حجازي
مدير عام منح التفرغ ورعاية الفنانين والأدباء بالمجلس الأعلى للثقافة
ورئيس قسم اللغة العربية وآدابها السابق بالجامعة المصرية بكازاخستان

مقدمة :

خلال العصرين الأيوبي والمملوكي شهدت المنطقة العربية صـــراعًـــا مريرًا بين المسلمين والصليبيين من جهة، وبين المسلمين والمغول من جهة أخرى، وحصلت معارك خلَّدها التاريخ كمعركة "حطين" (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م) التي هُزم فيها الصليبيون على يد صلاح الدين الأيوبي، ومعركـــة "عـــيـــن جالوت" (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م) التي انتهت بهزيمة جحافل المغول علـــى يـــد المماليك.. وبرز سلاطين كبار أمثال صلاح الدين الأيوبي والظاهر بيـــبـــرس والمنصور قلاوون؛ ولهذا سطَّروا لهم سِيَرًا شعبية كانت بمثابة اعترافا بمـــا قدَّموه من أعمال جليلة وبطولات: فأُلِّفت سيرتان في السلطان صلاح الديـــن، وسيرتان في الظاهر بيبرس، وسيرة في المنصور قلاوون وأخرى في ولـــده الأشرف خليل.

ولا شكَّ أن الظاهر بيبرس يعد المؤسس الحقيقى لدولة المماليك فى مصر رغم أنه السلطان المملوكي الخامس من حيث الترتيب الزمنى فى الجلوس على العرش بعد شجرة الدُّر، وعز الدِّين أيبك، والملك المنصور على بن أيبك، والملك المظفر قطز. لكن قِصَر المدة التى شغلها هؤلاء السلاطين فى الحكم، وما شهدته فترات حكمهم من اضطرابات وحروب لم يمكنهم من إعـــادة تـــرتـــيـــب أدوات السلطة، وآليات عملها فى الدولة. لكن فترة حكم بيبرس الطويلة والرخاء الذى

شهدته وفرت له أن يعيد هذا الترتيب. كما أنه أحد الحكام الذين تمكنوا من سطر سيرتهم في التاريخ بخطوط بارزة، بما قاموا به من إنجازات عديدة، وعلى الرغم من بعض التحفظات في شخص هذا الحاكم، فإنه كان صاحب الفضل في تغيير وجه مصر حيث قام بالعديد من الإنشاءات والتطورات التي ساهمت في رفع مكانة الدولة، ومازال التاريخ يذكرها جيداً وينسب الفضل في وجودها إليه، ولا تزال العديد من المعالم الأثرية المتبقية من عصر الظاهر بيبرس واقفة لتشهد على مدى ازدهار عصره ومدى حرصه على النهضة بالبلاد.

من هنا، فإننا نتناول التعريف بالظاهر بيبرس حتى يتعرف العالم الآن على هذه الشخصية التاريخية العظيمة، إنه ركن الدين بيبرس العلائي البندقداري الصالحي الملك الظاهر: أصله من بلاد القبجاق (قيل كازاخستان حالياً)، أُخذ من بلاده صغيراً، فبيع لشخص يُسمى العماد الصائغ، ثم اشتراه منه الأمير علاء الدين أيدكين البندقداري، ثم آل ملكه إلى الملك الصالح نجم الدين الأيوبي فنسب إليهما، ثم أعتقه الصالح وجعله من جملة المماليك البحرية، ثم دفعت به الأقدار فصار أتابك العسكر في دولة المظفر قطز، فلما قُتل قطز صار بيبرس سلطاناً.

ولد السلطان بيبرس في حدود سنة ٦٢٥هـ / ١٢٢٨م (وقيل ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م)، وولي السلطنة سنة ٦٥٨هـ، وتوفي في دمشق في ٢٨ المحرم ٦٧٦هـ - ١٢٧٧م بقصره الأبلق، ودفن في المدرسة الظاهرية بباب البريد في سوريا، وقيل إنه مات مسموماً. وأنجب من الأولاد: السعيد محمد (بركة خان)، وشلامش، والخضر، وسبع بنات.

إن الظاهر بيبرس بطل مشهور من أبطال التاريخ الإسلامي، كتب عنه وعن إنجازاته الكثير؛ فهو خامس سلاطين المماليك (حكم بين ١٢٦٠ و١٢٧٧م) وإن كان المؤسس الفعلي لدولتهم- دولة المماليك- التي حكمت

مصر والشام لأكثر من ٢٥٠ سنة (١٢٥٠-١٥١٧م)، وهو أيضًا واضع أسس النظام المملوكي الذي اعتمد على تدريب وتعليم عبيد فتيان يجلبون من آسيا الوسطى والقبجاق وتحريرهم بعد إتمام تدريبهم الذي يستمر عادة اثنتي عشرة سنة لكي يتسلموا منصبًا في الجيش المملوكي ويصعدوا في الرتب إلى أعلى الدرجات بما في ذلك رتبة السلطان. هذا النظام المحكم والمغلق على نفسه اعتمد على قوة وانضباط وتلاحم المماليك عرقيًا ولغويًا ودينيًا وترابط مصالحهم الاقتصادية والاجتماعية للحفاظ على سيطرتهم المطلقة على المجتمع ومقدراته عن طريق احتكارهم لكل مناصب الدولة المهمة خصوصًا منها العسكرية التي لم يسمح لأي كان من غير طائفة المماليك بتقلدها. ونجح هذا النظام نجاحًا باهرًا في المائة سنة الأولى ثم ضعف وابتدأ بالانحلال، ولكنه قاوم عناصر التآكل، ولم يسقط إلا بعد أكثر من مائة عام على أيدي العثمانيين القادمين من الشمال بأسلحتهم الحديثة وتنظيمهم العسكري المتطور.

لقد كانت فترة الظاهر بيبرس فترة حاسمة فى تاريخ الأمة العربية والإسلامية؛ حيث أصيبت الدولة بخطر يتهددها فى كيانها واستمرارها؛ فالعدو جاسم فى قلب أراضيها، ويسعى لمحو أبنائها وطمس هويتها، وفى هذه الفترات تحشد الدولة- متى تنبهت للخطر- كل قواها لمواجهة هذا الخطر الداهم، ومن هذه الأدوات الوعي الديني بما يحمس به الجنود المقاتلين، ويحشد أفراد الشعب وراء قادته دعمًا لهم ومساندة لجنوده، ومنها الوعي الإبداعي كالأدب عامة والشعر خاصة بما يثير قوى الشعب ويبصرهم بالخطر المحدق بهم، وكثيرًا ما كانت العلاقة بين رجل الدين والشاعر فى تراثنا العربي علاقة منافسة رغم وجود كثير من الشعراء الفقهاء أو الفقهاء الشعراء، لكن تبقى العلاقة بين رجل الدين والشاعر علاقة منافسة على الحظوة لدى السلطة. والتأمل فى موقف

الظاهر بيبرس وهو رجل الدولة العتيد يبين لنا موقف الحكام فى الأمة الإسلامية من الجانبين.

أما فى حالة الظاهر بيبرس بعد ذلك بأكثر من خمسة قرون فالأمر مختلف؛ فقد كانت الحملات التى تجردها الدولة على أعدائها فى الخارج لا تنقطع، كما كان تهديد أعداء مصر لأراضيها الداخلية قائماً وبصورة حادة قد تهدد كيانها، واستدعى ذلك خروج الجيوش فى حملات متتابعة لتأمين الحدود وصد الهجمات، وكان بيبرس عادة ما يقود هذه الحملات بنفسه لصد أخطار المغول والصليبيين من الشرق والشام وخطر النوبة من الجنوب، وهى أخطار فى مجملها كانت مهددة للعمق فى الدولة المملوكية فى مصر والشام، وكانت الدولة الناشئة فى أشد حالات الاحتياج إلى جهاز إعلامي ضخم لمواكبة حركة الجيوش فى جهادها؛ لذلك فإن الظاهر بيبرس أحاط الثقافة العربية برعايته وأولاها اهتمامه؛ إذ أنشأ مدرسة كبيرة عُرفت باسم المدرسة الظاهرية عام ٦٦٢هـ، وألحق بها مكتبة تشتمل على أمهات الكتب فى سائر العلوم، وأجرى الرواتب على أساتذتها وطلابها، كما ألحق بها مساكن لهم، كما بنى بجانب المدرسة مكتباً لتحفيظ أيتام المسلمين القرآن الكريم، وأجرى لمن بالمكتب من الأطفال الجرايات والكسوة والسقاية، وأوقف على كل هذا عائد الحي المعروف فى القاهرة حتى الآن باسم "تحت الربع"، وكان ربعًا كبيراً مملوءاً بالدور والحوانيت، كما كان يختار لمدرسته أشهر علماء عصره فى تخصصاتهم مثل الإمام عبد الرحمن بن عمر بن العديم عالم أهل زمانه فى الفقه الحنفى (ت ٦٧٧هـ)، كما اختار للقضاء مجموعة من أعلام عصره مثل الإمام أبي حفص عمر بن عبد الله السبكي (ت ٦٦٩هـ) عالم أهل زمانه فى الفقه المالكي. وفى عهده شهدت الحركة الفكرية فى مصر نشاطًا ملحوظًا، حتى يعد عصره من

العصور الخصبة الإنتاج فى التراث العربي؛ ففى عصره أتم الإمام القرطبي (محمد بن أحمد، ت ٦٧١هـ) تفسيره المشهور "جامع أحكام القرآن، والمبين لما تضمن من السنة وآى القرآن".

وعلى أرض مصر وفى عصر الظاهر بيبرس ٦٧٢هـ أتم ابن خلكان (ت٦٨١هـ) كتابه الضخم "وفيات الأعيان"، ويراه الدارسون من أكبر كتب التراجم وأوثقها. كما كان بيبرس مهتماً بالعلوم التجريبية مثل علم الطب، وقد شمل برعايته مجموعة من الأطباء النابهين فى عصره مثل ابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨هـ) صاحب كتاب "طبقات الأطباء"، وشهاب الدين بن فتح الدين القيسي، ورشيد الدين أبي حليقة النصراني، وعموماً فقد كان بيبرس- على حد قول ابن تغري بردي فى "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة- "يقرب أرباب الكمالات من كل فن وعلم. وكان يميل إلى التاريخ وأهله ميلًا زائداً ويقول: "سماع التاريخ أعظم من التجارب".

ويعد الظاهر بيبرس الحاكم الوحيد في تاريخ مصر الإسلامية الذي تحول إلى بطل شعبي أسطوري له سيرة شعبية جُمعت في أكثر من ثلاثة آلاف صفحة، وتُحكى في المقاهي، ويتداولها عامة الشعب صغاراً وكباراً؛ فكانت سيرته ملحمة للبطولة يتغنى بها الشعراء والقصاص ليثيروا النخوة في نفوس الشعب.

أصله ونشأته

يختلف كثير من المؤرخين في أصله؛ فبينما تخبر بعض كتب التاريخ العربية ككتاب "السلوك إلى معرفة دول الملوك" للمقريزي، و"النجوم الزاهرة" لابن تغري بردي، و"تاريخ الجبرتي" أنه تركي الأصل من القبجاق (كازاخستان حالياً)، يرى بعض مؤرخي المسلمين أن مؤرخي العرب كانوا يعتبرون الشركس جزءاً من الترك، وأن أي رقيق كان يُجلب من مناطق القوقاز والقرم كانوا

ينسبونه للقبجاق، وبيع بيبرس في سوق الرقيق وهو في الرابعة عشرة من عمره في سوق دمشق، واشتراه الأمير علاء الدين الصالحي البندقداري لينتقل بعدها في خدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب، ونشأ في دمشق وأعتقه الملك الصالح مُعيِّنًا إياه قائداً لفرقة المماليك.

صفات الظاهر بيبرس

اتصف السلطان الظاهر بيبرس بالحزم والشجاعة والبأس الشديد، وعلو الهمة، وبعد النظر، وحسن التدبير، واجتمعت فيه صفات العدل والفروسية والإقدام، والكرم وحب الخير والإحسان إلى الفقراء، وإكرام العلماء وسماع نصائحهم والسكوت على مخاشنتهم له في النصح – كما كان يفعل معه الإمام عز الدين بن عبد السلام، والإمام النووي. ولم يكد يستقر في الحكم حتى اتخذ عدة إجراءات تهدف إلى تثبيت أقدامه في الحكم، منها: التقرب من الخاصة والعامة؛ بتخفيف الضرائب عن السكان، كما عفا عن السجناء السياسيين، وأفرج عنهم، كما عمل على الانفتاح على العالم الإسلامي لكسب ودِّ زعمائه، وقام كذلك بالقضاء على الحركات المناهضة لحكمه، وأعاد الأمن والسكينة إلى البلاد؛ بالإضافةً إلى ذلك، أعاد إحياء الخلافة العباسية. كما وصف بأنه كان يتنقل في ممالكه؛ فلا يكاد يشعر به عسكره إلا وهو بينهم. وقيل عنه إنه ما كان يتوقف عن شيء لبلوغ غايته. كان يعد الوعود الكاذبة، ويكتب كتباً مزورة، ليحمل فيها قوى الحصون على الاستسلام له. وكان نجاحه يعتمد على تنظيمه وسرعته وشجاعته المتناهية.

بيبرس الجندي والقائد

شارك بيبرس مع جيش المماليك في معركة المنصورة ضد الصليبيين في رمضان من عام ٦٤٧ هـ الموافق ١٢٤٩ م، والتي تم فيها أسر الملك الفرنسي

لويس التاسع في دار ابن لقمان بالمنصورة، وبعد مشاركة بيبرس في جيش دمشق ومعارك المماليك ضد الصليبيين في الشام ومصر، ثم هرب ركن الدين بيبرس إلى دمشق بعد مقتل فارس الدين أقطاي الجمدار وتولي غريمه عز الدين أيبك للسلطنة، بعد فترة من إقامته في دمشق عاد لمصر متولياً منصب الوزارة بعد تولي سيف الدين قطز للحكم عام ١٢٦٠م ليشتركا معًا في محاربة المغول والتتار الذين كانوا في طريقهم إلى مصر بعد اجتياحهم المشرق الإسلامي ثم العراق وإسقاطهم الدولة العباسية في بغداد. ويرجع له الفضل مع زميله السلطان المظفر سيف الدين قطز في وقف المد المغولي على مصر واندحار الخطر المغولي عن العالم، وذلك في معركة "عين جالوت" في أراضي فلسطين عام ١٢٦٠م، والتي كانت أمام الجيش المغولي بقيادة القائد المغولي المحنك كتبغا.

بيبرس السلطان

أراد بيبرس أن يُضفي على حكمه نوعًا من الزعامة والنفوذ على البلاد الإسلامية، ولكي يمنح دولته الفتية نوعًا من الشرعية، فعمد إلى إحياء الخلافة العباسية في القاهرة ليقيلها من الانتكاسة التي أصابتها في بغداد على يد المغول. وعليه فقد أرسل في طلب أحد أبناء البيت العباسي، فوصل إلى القاهرة القاسم أحمد في رجب ٦٥٩هـ/يونيو ١٢٦١م، حيث قوبل بالتكريم والاحترام، وبعدها بأيام عقد السلطان بيبرس مجلسًا عامًا بالديوان الكبير بالقلعة واستدعى كل أعيان البلد، ثم قام السلطان أمام الجميع فبايع الخليفة على العمل بكتاب الله وسنة رسوله وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعلى الجهاد في سبيل الله، فتبعه الجميع بالمبايعة، ولقب الخليفة بالمستنصر بالله.

إنجازاته وانتصاراته

شهد عصر السلطان بيبرس العديد من الإنجازات والأعمال التي ارتبطت باسمه، والتي نذكر منها: تأسيسه للدولة المملوكية وقيامه بمحاولة إحياء الخلافة العباسية التي أصابها الانهيار مع سقوط بغداد على يد هولاكو، فقام بإحضار "أبو العباس أحمد" وجعله خليفة للمسلمين وبايعه على العمل بكتاب الله وسنة نبيه، وهكذا أصبح هناك خليفة للمسلمين مرة أخرى، وعلى الرغم من وجود الخليفة فإن السلطة الفعلية كانت في يد بيبرس. كما عمل بيبرس على مد نفوذه إلى العديد من البلدان حتى وصل إلى الحجاز، وقضى على أعدائه وأعداء الدولة المملوكية، وقضى على حاكم الكرك الملك "عمر بن العادل الأيوبي" والذي كان يناصب بيبرس العداء، فاستولى بيبرس على الكرك وقام بتعيين والٍ عليها.

ومن الأمور المهمة التي قام بها بيبرس سعيه من أجل القضاء على ما تبقى من الصليبين والمغول المتربصين بالدولة الإسلامية، فعقد الاتفاقيات والمعاهدات، وتأكد من تماسك جبهته الداخلية وجهز الجيش من أجل الخروج لتأمين جبهته الخارجية أيضًا، فبدأ في شن الغارات على الإمارات الصليبية، كما عمل على استرداد ما في أيديهم من أراضي، وبالنسبة للمغول فقد قام بالتحالف مع "بركة خان" هذا الزعيم المغولي الذي أعلن إسلامه ووطد علاقته به من أجل أن يأمن جانبه ويتحالف معه ضد مغول هولاكو وأولاده الذين كانوا يفرضون سيطرتهم على العراق وفارس.

عمل بيبرس على إعداد الجيش والأسطول وتجهيزهم بجميع المتطلبات اللازمة لهم من أسلحة وعتاد، فتمكن من تحقيق العديد من الانتصارات على الساحتين الصليبية والمغولية، ومن انتصاراته الصليبية نذكر فتحه لقيسارية، وأرسوف، وقلعة صفد، ويافا، واختتمت بفتح أنطاكية التي كانت تعد الحصن

الحصين للصليبيين، فحقق انتصاراً باهراً بفتحه لهذه المدينة. كما حقق انتصارات عديدة على المغول في موقعة البيرة وحران، ورد هجمات المغول المتتابعة على بلاده، إلى أن قضى عليهم نهائياً عند بلدة أبلستين، وذلك في عام ٦٧٥هـ ، وبذلك حقق بيبرس ما كان يبتغيه من تأمين لجبهته الخارجية وحدود دولته.

لقد أصبحت السلطة الفعلية في يد الظاهر بيبرس، وشهد عهده نهضة معمارية وتعليمية كبيرة؛ حيث اهتم بتجديد الجامع الأزهر، كما أنشأ عام ٦٦٥ هـ جامعًا عُرِفَ باسمه إلى اليوم في مدينة القاهرة وهو "جامع الظاهر بيبرس"، وأقام المدرسة الظاهرية بدمشق عام ٦٧٦ ه. ويعتبر الظاهر بيبرس أبرز ملوك الدولة المملوكية، بتحالفه مع بركة خان زعيم القبيلة الذهبية المغولية وإقامته لمعاهدات وعلاقات ودية مع كل من: مانفرد بن فردريك الثاني الإمبراطور الروماني، وملك قشتالة ألفونسو العاشر، وبقضائه أيضًا على المؤامرات التي كانت تحاك ضد حكمه؛ حيث أخمد تمرد الأمير علم الدين سنجر الحلبي عام ١٢٦٠، والتي كانت بعد مقتل السلطان قطز، إضافة إلى ثورة الكوراني في القاهرة ضده في العام نفسه، ووسَّع ملكه بالغزوات حيث أعلن الجهاد في جبهتين ضد المغول والصليبيين في الشام.

ويعد الظاهر بيبرس أيضًا بطلاً من أبطال الأمة الإسلامية؛ فقد برز أولاً كمملوك وكأمير من خلال دوره الحاسم في غزوتي لويس التاسع لمصر عام ١٢٤٩م التي انتهت بمعركة المنصورة، وغزوة المغول بقيادة هولاكو عام ١٢٦٠م التي أوقفها المماليك في معركة عين جالوت، ثم قضى جل سلطنته في جهاد لا يفتر ضد الصليبيين في فلسطين الذين تمكن من استرجاع العديد من المدن والحصون منهم، وضد المغول الذين كانوا يتحينون الفرص دوماً لاحتلال

سورية ولكنه صدهم عن ذلك مراراً، بالإضافة إلى قتاله للإسماعيليين في حصونهم على الجبال السورية، والأرمن في دولتهم المتاخمة لسلطنته من الشمال.

جلس بيبرس على عرش مصر ليخلف السلطان الراحل قطز، وتم إطلاق لقب "الملك الظاهر" عليه، أخذ بيبرس على عاتقه مهمة تطوير البلاد وتحديثها، وسعى من أجل ذلك كثيراً، وبالفعل أصبحت مصر في عهده على درجة عالية من الاستقرار والحداثة، فعمل على تقريب الأمراء إليه ومنحهم الألقاب والإقطاعيات، ولم يقتصر هذا على الأمراء فقط، بل قرَّب إليه عامة الشعب وخفف عنهم أعباء الضرائب التي كانت تثقل كاهلهم، وأطلق سراح العديد من المسجونين.

أبلى بيبرس بلاءً حسنًا في خدمة الأمة والدين الإسلامي خلال فترة حكمه، وعمل على إنقاذ الخلافة الإسلامية من الانهيار بعد مقتل الخليفة العباسي على يد المغول عقب سقوط بغداد عاصمة الخلافة العباسية عام٦٥٦هـ / ١٢٥٨م وبقاء كرسي الخلافة خاويًا، وتمكن من استقدام أحد أمراء الأسرة العباسية إلى القاهرة وبايعه بالخلافة في احتفال كبير عام ٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م، فكان هذا العمل ذا أثر كبير في جمع شمل الأمة الإسلامية حول خليفتها مرة أخرى.

عندما توطدت دعائم سلطة المماليك، وقويت شوكتهم، نتيجة الإجراءات التي اتخذها "بيبرس"، رأى هذا السلطان ضرورة متابعة سياسة صلاح الدين الأيوبي وخلفائه في طرد الصليبيين، وإجلائهم عن البلاد الإسلامية، ولم يكن ذلك بالأمر السهل، فقد كان لزاماً عليه أن يجابه ما تبقى من الإمارات الصليبية وهي أنطاكية، وطرابلس، والجزء الباقي من مملكة بيت المقدس، وحتى يحقق هدفه اتبع إستراتيجية عسكرية قائمة على ضرب هذه الإمارات الواحدة تلو الأخرى، ولم تنقضِ سنة من السنوات العشر الواقعة بين عامي (٦٥٩- ٦٦٩هـ/

١٢٦١- ١٢٧١م) دون أن يوجه إليهم حملة صغيرة أو كبيرة، وكان ينتصر عليهم في كل مرة؛ فقد عمل بيبرس على تصفية الوجود الصليبي في الشام، وكان له الفضل في تطهير مدن قيسارية وأرسوف وطبرية ويافا وأنطاكية من الصليبيين.

وعلى المستوى الداخلي عمل بيبرس على تقوية دعائم البلاد والنهضة بها في جميع المجالات، فشهدت مصر في عهده عصراً جديداً من الازدهار، خاصة وقد تمكن من تأمين حدودها الخارجية، وقضى على الفتن والمؤامرات الداخلية. ومن الإصلاحات التي شهدتها مصر على يده قيامه بإدخال تعديلات على النظام القضائي، فقام بتعيين أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة ، كما أعاد للجامع الأزهر رونقه فقام بكثير من الترميم والتجميل حتى عاد له جماله ومكانته مرة أخرى، وعمل على إنشاء العديد من المؤسسات التعليمية، فأنشأ المدارس بمصر ودمشق، وتُعرف المدرسة المصرية باسم "المدرسة الظاهرية"، وتضم المدارس المكتبات الضخمة التي تزخر بكميات هائلة من الكتب.

ومن أعماله أيضًا أنه نظَّم البريد وخصص له الخيل، وبنى كثيراً من العمائر، وجدد المسجد النبوي، وحفر الترع والخلجان، وشاد القناطر والأسوار، وكافح الخمر والمفاسد، وأقام الخلافة العباسية في مصر بعد أن زالت من بغداد على يد المغول، وأعاد خطبة الجمعة والدراسة إلى الجامع الأزهر بعد أن هجر طويلاً، ونصب أربعة قضاة شرعيين، واحداً من كل مذهب من مذاهب السُّنَّة الأربعة بعد أن كان القضاء مقتصراً على قاضي قضاة شافعي.

وفي القاهرة قام بإنشاء أحد الجوامع المهمة، وهو جامع الظاهر بيبرس، والذي مازال قائماً إلى اليوم (وقد أعادت ترميمه جمهورية كازاخستان)، وتُعرف

المنطقة حوله باسم حي الظاهر (الضاهر)، كما عمل بيبرس على إنشاء الجسور وحفر الترع وإنشاء القناطر، وأنشأ مقياساً للنيل وغيرها العديد من الأعمال.

ومن أهم منشآته العمرانية بشكل عام:

- جدد بناء الحرم النبوي.
- جدد بناء قبة الصخرة في القدس بعد أن تداعت أركانها.
- أعاد الضياع الخاصة بوقف الخليل في فلسطين، بعد أن دخلت في الإقطاع، ووقف عليه قرية اسمها بإذنا.
- بنى المدرسة الظاهرية بين القصرين، وعين فيها كبار الأساتذة كان من بينهم مدرس الحنفية الصاحب مجد الدين بن العديم، ومدرس الشافعية الشيخ تقي الدين بن رزين، وولى الحافظ شرف الدين عبد المؤمن الدمياطي مشيخة الحديث، والشيخ كمال الدين الحلبي مشيخة القرَّاء.
- بنى مشهد النصر في عين جالوت تخليداً لذكرى الانتصار على المغول.
- جدد أسوار الإسكندرية.
- أعاد بناء القلاع التي هدمها المغول في بلاد الشام مثل قلعة دمشق، قلعة الصلت، قلعة عجلون وغيرها.
- عني بيبرس أيضًا بالتجارة وسعى لتأمينها، وصك عملات خالصة نقية حازت على ثقة الناس، فازدهرت التجارة في عصره وعم الأمان ربوع دولته.

ومع أن الظاهر بيبرس هو من وضع أسس النظام المملوكي العسكري الحازم وجعله الطريق الوحيد للصعود إلى ذرى السلطة، فهو لم يسلم من الميل الطبيعي لتفضيل ابنه البكر الملك السعيد محمد بركة خان على أصحابه من أمراء المماليك لكي يخلفه في السلطنة. وعلى الرغم من أنه أحاط نفسه بمجموعة من الأمراء الكبار الذين ساندوه في بداية حكمه والذين كان كل منهم ملكاً صغيراً

بمماليكه الكثر وثروته الهائلة التي جمعها من الإقطاعات والامتيازات، فإنه سرعان ماغيّر أسلوبه في التعامل معهم بعد تعيينه ابنه كولي عهد له عام ١٢٦٤م والصبي لما يتجاوز الرابعة من عمره. فهو قد قدم بركة خان عليهم وعينه على رأس وظائف مهمة في الدولة انتهت بأن عينه سلطاناً مشاركاً وهي بدعة لم تعرف من قبل، وأخذ العهود والمواثيق من أمرائه كلهم لقبول ولايته وقمع من شك بإخلاصه أو رأى منه طموحاً زائداً وسجنه. ثم قام بيبرس بتزويج بركة خان بابنة الأمير الكبير قلاوون الألفي وهو أحد أكابر المماليك الصالحية من رفاقه القدامى وأحد أهم المتنفذين في الدولة ليضمن ولاءه وولاء الأمراء الصالحية، ولكنه في ذلك خالف قاعدة وضعها هو نفسه واستخدمها أصلاً في الوصول إلى السلطة، ألا وهي قاعدة رفض التوريث في النظام المملوكي وإعطاء العرش لأقدر الأمراء الكبار عند وفاة السلطان أو قتله.

وهكذا بعد حياة مليئة بالأحداث، وبعد حكم دام سبعة عشر عاماً تُوفي الظاهر بيبرس في عام ٦٧٦ هـ/ ١٢٧٧م، بعد أن اتخذ لنفسه مكانًا رفيعًا بين خيرة الحكام المسلمين، الذين دافعوا عن الدولة الإسلامية ورفعوا عليها راية الدين خفاقة عالية.